منهج الاستيعاب والتجاوز في فكر بديع الزمان سعيد النورسي

دراسة في تجليات النظر الإيجابي إلى الذات وإلى الآخر

د. محمد علّا

دكتوراه (الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية)

جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال

مركز دراسات المعرفة والحضارة - المغرب -

البريد الإلكتروني: mhm.alla@gmail.com

تمهيد:

إن الناظر في الإنتاج العلمي والفكري الذي خلّفه بديع الزمان سعيد النورسي – رحمه الله — يجده مفعما بالتنوع والغزارة، قد شمل ألوانا من العلوم، وفروعا من الثقافة والمعرفة؛ في العلوم الشرعية، ونظرات في التجليات الكونية، وتأملات في الفلسفة[1] والتاريخ والاجتماع والسياسة[2] والاقتصاد، والآداب واللغة والشعر والفنون، والعادات والتقاليد، ونظرات استشرافية للمستقبل... وإن مختلف الإشكاليات التي حاول مقاربتها كانت ميزتها الجِدّة والراهنية، فقد كان مشخصا ماهرا لعلل الأمة، وطبيبا بارعا في اقتراح العلاج والأدوية. فمنهجه الأساس، في موسوعة رسائل النور، يرتكز على خطين متوازيين؛ الأول: العمل على

(١) الفلسفة في رسائل النور مستمدة من الرؤية الكلية للوجود التي جاءت بها الرؤية التوحيدية القرآنية، والمرتبطة بالحكمة والقيم والجمال، وليست فلسفة النقاش السوفسطائي الجدلي الذي لا يكسب معرفة ولا يصل إلى حقيقة ذات نفع وأثر، كما أنها فلسفة تعطي مركزية كبرى للعقائد ومنها الإلهيات والنبوات والغيبيات وغيرها، وليست فلسفة مادية أحادية إلحادية.

(٢) ليس المقصود في هذا السياق المعنى الضيق للمجال السياسي، أي الممارسة السياسية المباشرة التي تحكمها قواعد تأسيس الأحزاب وتوزيع السلطات بين مكونات المشهد السياسي. فالمسلك السياسي عند النورسي كان خاصا، لقد كان على وعي تام بالسياق التاريخي وتحولاته المتسارعة، كما أنه اتخذ مسارا قرآنيا في النضال رفع من سقف التحديات والأهداف والغايات، مما جعل رؤيته للحياة ومجرياتها رؤية موجّهة بقواعد القرآن الكلية التي تسع جميع مجالات الحياة بأجمعها بما فيها القواعد الموجّهة للممارسة السياسية.

كشف الداء وفهمه وتشخيصه، ببيان بعض أخطاء الماضي وانحرافاته، ومنزلقات الحاضر والتواءاته. والخط الثاني: العمل على اقتراح الحلول والبدائل الاجتهادية الممكنة، من خلال التمييز بين مختلف القضايا والإشكاليات، وتصنيفها حسب أهميتها والأولويات المستعجلة منها، وكذا اقتراح سبل تصحيح المنطلقات وتصويب المسارات برؤى ناقدة ونافذة هدفها إحياء الإيمان ومنبعها تجديد النظر في القرآن.

تحاول هذه الدراسة مقاربة موضوع «الاستيعاب والتجاوز» اعتمادا على التراث العلمي الغني الذي خلّفه بديع الزمان سعيد النورسي وخاصة موسوعة "رسائل النور"، مقاربة علمية تستنطق بعض قواعد النظر الإيجابي التي تتجلى فيها منهجية الاستيعاب والتجاوز بتمظهراتها الإنسانية والحضارية والعلمية والثقافية والاجتماعية.

وتستمد إشكالية الموضوع أهميتها وراهنيتها وشرعيتها للبحث من كون أصول أفكار رسائل النور مستمدة من القرآن الكريم، فهو منطلقها الأول والأساس، والاستيعاب والتجاوز من محددات القرآن المنهجية، فلا شك أن آثار هذا المحدد وشعاعاته ستكون متناثرة في رسائل النور وتحتاج إلى بحث واستقراء وتنقيب. وقد مكنني اتخاذ "الاستيعاب والتجاوز" نموذجا معرفيا مؤطّرا وموجّها في قراءتي لرسائل النور من الانفتاح على مداخل منهجية رفيعة وآفاق معرفية جديدة سلّطت الضوء على تجلياته في سيرة بديع الزمان سعيد النورسي في عدد من جوانبها الشخصية والعلمية والنضالية والحضارية.

لقد استوعب الدين كل مراحل حياة النورسي، عاش في الدين ولخدمة الدين والقرآن وللدعوة إلى الإيمان وتجديده. وحين يستوعبنا الدين والإيمان والقرآن فإنه يوجه أمانينا ورغباتنا وكل حركاتنا وسكناتنا، فيحرسها ويقوّمها فكرا وسلوكا، ويهديها إلى طريق الحق والصواب، ويفرض علينا تكاليف وفرائض والتزامات وغيرها، لا ليقهرنا ويجعلنا خنوعين أذلاء في أطر عقدية تعبّدية، وإنما هو استيعاب لنا ندخل في حماه بإرادتنا وبتوفيق وإنعام من المولى عز وتعالى، وهو السبيل لتجاوز عوالم الضيق والشهوات والرقي بنا في عوالم الملكوت والخيرات والبركات. رقي يحلق بالمؤمنين في آفاق علوية روحية قوامها الإيمان والعزة والكرامة، والقوة والمنعة والأمان والسعادة، يقول النورسي: "إن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى علّيين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة، بينما يتردّى بظلمة الكفر إلى أسفل سافلين فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم"[1].

---

(١)"**كليات رسائل النور، الكلمات**"، بديع الزمان النورسي، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، الكلمة الثالثة والعشرون، ص: ٣٤٥.

فالتجاوز عند النورسي هو تجاوز قرآني، لأنه خدمته للقرآن وعزمه على حمل مشروع إنقاذ الإيمان جعل منظومة المعاني التي يتحدث بها النورسي مستمدة من تعالي القرآن وترفعه ورفعته وحاكميته وهيمنته وقدرته على الاختراق المعنوي والدلالي والاختراق القيمي والأخلاقي والاختراق الزماني والمكاني.. فارتباط الإنسان (الذي هو جزء من الأرض) بالقرآن الذي مصدره علوي سماوي يمكنه من الرقي في مراتب الكمالات فيسحب معه إلى تلك المراتب كل من تمسك به وسار وفق نهجه. والتعلق بالمراتب العلوية يخفف الصراع عن المراتب الدنيوية ويراقب ميولات النفس وتطلعاتها الهابطة.

أولا: المقصود بالاستيعاب والتجاوز

"الاستيعاب والتجاوز" من القدرات والطاقات الهائلة التي تفرد بها الإسلام عن غيره من الديانات، والمقصود منهما قدرة الإسلام على احتواء وضم كل ما فيه خير من النُّظم والمرجعيات والاتجاهات، والرقي بها نحو الأفضل والأحسن أو تجاوزها ببدائل أرقى وأسمى. فهو محدد من محددات القرآن المنهجية، مهيمن على الكتب المنزّلة، وحاكم على إنتاج العقل البشري بفضل مرجعية الوحي التي تعتبر ميزان الاجتهادات البشرية.

ويقتضي منهج الاستيعاب والتجاوز الانفتاح على الأنساق الثقافية المتداولة ودراستها وإدراكها وتحليلها، ثم تنقيتها ونقدها لتجاوز ما لصق بها من انحرافات وانزلاقات، وإعادة تركيبها ضمن الرؤية التوحيدية المهيمنة. ومن أهم مسالك «الاستيعاب والتجاوز» أنه "إمكان يتأسس على فك الارتباط بين منجزات الحداثة العلمية البشرية، وبين إحالاتها الفلسفية الوضعية، وإعادة تركيب هذه المنجزات العلمية في ناظم ديني غير وضعي، أو بتحديد آخر: تحصيل القدرة على فك مفاصل البناء النظري المنقول وإعادة تركيبها، بفضل عمليات تحويلية متعددة تدخل على المفاهيم والأحكام"[1].

مختلف المعاني السابقة نجد صداها يتردد في نظرات بديع الزمان النورسي الثاقبة حول القرآن الكريم وتفوق منهجه على سائر المناهج المعرفية السائدة ذات الخلفية المادية الأحادية، فضلا عن خصوصية السياق الحضاري في تلك الفترة التي عرفت منعطفات تاريخية كبيرة

(١) بلعقروز، عبد الرزاق "عودة المكبوت الديني في الثقافات المعاصرة" **مجلة قضايا إسلامية معاصرة**، السنة الرابعة عشرة، العدد ٤٣-٤٤ صيف وخريف ٢٠١٠-١٤٣١، ص: ٣٤.

تجلت في الهجمة الشرسة على العالم الإسلامي، والصراع الدامي بين قوى إقليمية اتخذت من سلاح العلم المادي والتطور التقني وسيلة نفوذها وهيمنتها. وقد كان النورسي منخرطا بإيجابية في تلك اللحظات التاريخية ومشخصا للإفرازات الحضارية والثقافية. واستقراء رسائل النور يدل أن منهجه الأساس كان قائما على آلية الاستيعاب والتجاوز، يوجّه الاختيارات لأقوم المسالك، ويؤكد على أهمية النظر التركيبي القائم على الانفتاح والانتفاع بدل الانغلاق والضياع، وكلها معاني مستمدة من روح القرآن الكريم ومقاصده.

ثانيا: التفكير والعمل الإيجابيين وعلاقتهما بالاستيعاب والتجاوز

إن النظر الإيجابي مدخل أساس لتفعيل آلية الاستيعاب، وكلما كان الجانب النظري التصوري سليما وقويا إلا وسينتُج عنه بالضرورة تفكير إيجابي وأعمال إيجابية بنائية في مختلف مجالات الحياة. والعمل الإيجابي في نظر النورسي منبعه الإيمان ومستنده القرآن، الذي استوعب الكليات والأسس الموجّهة لبناء الإنسان وتشييد العمران، والقائمة على الحوار ومنطلقات التزكية وأخلاق الرحمة والسماحة والمحبة والأخوة والانفتاح على الآخر وفهم منتوجه الحضاري والعلمي والمعرفي والقيمي الأخلاقي، وهي محددات أساسية حاكمة على العلاقات والتصرفات بل إنها قيم التكريم والاستخلاف المستقاة من الوحي ومشكاة النبوة.

وترتكز منظومة بديع الزمان سعيد النورسي المعرفية على حقائق القرآن ومعارفه، ولا شك أن الخريطة الأساسية للجهاز المفاهيمي القرآني قد شملت محددات منهاجية كبرى تتمحور حول: التوحيد والتكريم والاستخلاف والعمران، والوسطية والاعتدال، والقيم والأحكام والتشريعات والدعوة إلى إعمال العقل والفكر والنظر والإبصار والاعتبار، والدعوة إلى الحوار والتعارف والتعايش... وكلها مفاهيم ذات خصوصيات مطلقة، لها هيبتها وهيمنتها وقداستها وشمولها وتعاليها عن مؤثرات الزمان والمكان، لأن طبيعتها تقوم على البناء والتأسيس والرعاية والتوجيه، لذلك كانت قيما حاكمة للفكر والثقافة والسلوك والعمران. كما أنها ضوابط تسعى لبناء تفكير إيجابي وعمل بنائي حضاري في آفاقه الانسانية والكونية الرحبة، قادر على استيعاب كل جزئيات الحياة وتفاصيلها، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، والإسهام ليس فقط في إصلاح أحوال الفرد الذاتية، وإنما في إصلاح أحوال الأسرة والمجتمع والبشرية.

ثالثا: مقتطفات من سيرة بديع الزمان في ضوء آلية «الاستيعاب والتجاوز»

إن مفهوم "الاستيعاب والتجاوز" له ارتباط قوي بسيرة النورسي في مختلف مراحلها، وقد تجلى في أشكال عديدة في سيرته الذاتية ورؤيته للحياة ومنهجه في الإصلاح، ففي كل موقف من مواقفه نجد تجليا ربانيا وقبسا نوريا من دلالات الاستيعاب. فإذا نظرنا إلى الدلالة المباشرة للاستيعاب والتي تشير إلى الفهم العميق والذاكرة الراسخة والحفظ الجيد، نجدها أنها كانت الميزات الرئيسة للنورسي في صباه وطفولته، حيث بدأ الاستيعاب في وقت مبكر لدى سعيد؛ ذكاء خارق، وذاكرة قوية وقابلية كبيرة للحفظ وفهم راسخ(١)، وقد مكنته هذه المنح الربانية من امتلاك أرضية علمية شكّلت له زادا معرفيا ومستندا في إنتاجاته العلمية في مراحل لاحقة رغم بعده عن المكتبة والكتب.

كما استطاع أن يستوعب علوم شيوخه وأساتذته ويتجاوزهم، رغم صغره وحداثة سنّه، فقد "امتحنه الملا عبد الله بتوجيه الأسئلة إليه (بعدما أخبره النورسي بقراءته لثمانين كتابا في ظرف وجيز) ولما أصغى إلى أجوبته السديدة، قدّر فيه كفاءته العلمية، حتى اتخذه أستاذا له، مع أن بديع الزمان كان قبل ثمانية أشهر تلميذا لديه"(٢)، فقد كان عالما منذ وقت مبكر، ومتجملا بالتواضع، ومقدّرا لجهود العلماء وموقّرا لهم، ينافح عنهم، ويرفع من مكانتهم، وقد كان هذا الودّ متبادلا بين النورسي وعلماء زمانه، استوعبتهم رسائل النور فلم يعترضها أحد منهم ولم يقدّم نقدا معرفيا لها، فكان ذلك شهادة عرفان وبرهان على مكانة الرسائل وأهميتها وضرورتها.

ففكر سعيد النورسي هو فكر استيعابي يتجمل بالفهم الثاقب والنظرة الفاحصة، والتحليل العميق، كما أنه فكر متجاوز للسكينة العامة السائدة يسعى للرقي بها لما أفضل وأحسن، ويستند إلى أرضية صلبة متعالية، لا يضحي بالمبادئ والأصول من أجل متغيرات ظرفية، لأنه يعرف غاياته ومقاصده الكبرى ويسعى لتحقيقها مهما كانت التحديات والعراقيل بمنهج تنزيلي قائم على الإخلاص وتجاوز العائد المصلحي الذاتي، والصبر والتأني

---

(١) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**" لبديع الزمان النورسي، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص: ٧٧

(٢) المرجع نفسه، ص: ٦٤

والحفاظ على المكتسبات والبحث عن أنوار الآمال من براثن المحن والآلام.

وفي تأملاته القرآنية كان دائم الاجتهاد والسعي أن تستوعبَ تأويلاتُه للآيات القرآنية أكثر المعاني والتفسيرات والجزئيات الممكنة، لذلك نجده يذكر أوجها من التأويل ويسلط الضوء على جوانب جديدة وتجليات فريدة للآيات القرآنية لم يهتدى إليها من قبل، ثم يعقّب قائلا: "وجميع هذه الجزئيات تصح أن تكون مرادة ومقصودة، فهي معان حقيقية للآية الكريمة ومعان مجازية لها"(١). ولا شك أن حاجتنا اليوم ماسة إلى مثل هذا النظر الجديد الذي يحرك النصوص القرآنية وينعشها بتفاسير جديدة وتأملات فريدة تحيي التواصل المستمر للقرآن مع الواقع المتجدد ولا تكون عالة على اجتهادات العقول السابقة.

وإن تنوع مستويات آلية الاستيعاب والتجاوز ومنطلقاتها راجعة بالأساس إلى تنوع الواجهات والجبهات التي واجهها النورسي طيلة حياته، فهناك الاستيعاب والتجاوز على المستوى الإيماني والقائم على الارتباط المطلق بالقدرة الإلهية والاستمداد من عونه وتوفيقه والتعلق بحماه واليقين في قدرته، حيث استطاع النورسي بفضل الانتساب الإيماني إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة ومصدر الطاقة الإيمانية أن يستوعب التصور القرآني للحياة وحقيقة الوجود وغايته وأن يجعل منه سلاحا ألماسيا لمواجهة الكفر الإلحادي ونشر الإيمان، وقد عبّر النورسي عن أثر ذلك الإيمان التحقيقي قائلا: "فغدت نعمة الوجود بذلك الإيمان منطوية على نعم الدنيا والآخرة وقادرة على استيعابها"(٢).

وهناك الاستيعاب والتجاوز على المستوى الحضاري الذي استطاع من خلاله النورسي استيعاب السقف المعرفي والحضاري والوقوف على إفرازاته وتجلياته ثم اقتراح البدائل المتجاوزة لسلبياته وأخطائه.

وهناك الاستيعاب والتجاوز على المستوى العلمي والمعرفي وأكبر تجلياته النظر التكاملي بين الشرعيات والإنسانيات والكونيات، والعمل على استيعاب العلوم النافعة ودمجها ضمن إطار الحقيقة الشرعية.

وعموما لقد كان النورسي مستوعبا للجزئيات والتفاصيل ومتجاوزا لها إلى الأصول

---

(١) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، من مقدمة الكتاب لمصطفى صونغور، ص: ١٣

(٢) "**كليات رسائل النور؛ الشعاعات**" بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، الشعاع الرابع، ص: ٧٣.

والكليات، ومستوعبا للأشكال والمظاهر متجاوزا لها إلى المقاصد والجواهر، ومستوعبا للمرحلة التاريخية الراهنة التي عاشها متجاوز لها إلى الآفاق المستقبلية القادمة، ومستوعبا لفقه السابقين متجاوز له بفقه معاصر يستجيب ومتغيرات العصر، ومحررا له من العجز والجمود والركود، لذلك كان تحليله لوقائع الحياة ونظرته لمتغيراتها نظرة تركيبية كلية شاملة مستوعبة وليست نظرة تجزيئية أحادية اختزالية لا تريد أن ترى من الحقيقة إلا جزءا من جوانبها.

رابعا: تجليات الاستيعاب والتجاوز عند سعيد النورسي في ضوء نماذج من العمل الإيجابي

١- نظر إيجابي مستوعب للحياة بمختلف أحوالها.

لم يكن الإبداع والعطاء والإنتاج العلمي الذي تركه النورسي مستندا إلى ظروف الرخاء واليسر والراحة.. وإنما سطع نجم ذلك العطاء العظيم من رحم المعاناة والضيق والاغتراب والمرض والمراقبة، فقد ألّفت الرسائل ضمن ظروف لا تطاق "في الجبال والوديان والفيافي والبساتين، بعيدا عن أنظار المراقبة وأحيانا دون أن يكون لديه كاتب يعينه"(١)، صحيح أن العناية الربانية رافقت النورسي في مسيرته الدعوية والعلمية والجهادية، ولكن حجم العطاء الذي قدمه والجهد الذي بذله في خضم ظروف قاسية يعدّ درسا بليغا للسائرين في الطريق إلى الله، كلٌّ من موقعه وطبيعة عمله وظروف اشتغاله؛ وهي ظروف لا تخرج عن مسارين اثنين:

- فإما أن تكون دائرة حول الشدة والضيق والمعاناة؛
- أو في المقابل تكون محاطة بالرخاء والنعيم والأمن والاستقرار.

ففي الحالة الأولى ينبغي النظر إلى تلك الظروف بعين الرضا والتفاؤل والبحث في منافذ الحياة المختلفة والجدّ في طلب السبل الصحيحة التي تفتح الآمال وتحول المحن إلى منح، فتنتقل المعادلة من ردود أفعال غير محسوبة إلى تأثير وعطاء قد تمتدّ بركته حتى إلى من كانوا سببا في المحنة والضيق.

وأما بالنسبة لمن ينعم بظروف الأمن والرخاء والحرية فإن الدرس الموجّه إلى هؤلاء أبلغ وأشدّ، لأنهم مطالبون بأعلى مستويات العطاء والمردودية والإيجابية، ولا مبرر لضجرهم أو

---

(١) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، من مقدمة الكتاب لمصطفى صونغور، ص: ١٧

تشكّيهم، ولا يليق بهم خلق المبررات الواهية والمسوغات الملتوية للتغطية على تكاسلهم وتهاونهم، يصدق هذا على الجانب الفردي كما يصدق على الجانب الاجتماعي الحضاري، خاصة وأن أغلب مبررات الضعف والتخلف تستند إلى أطروحات وهمية من قبيل؛ المؤامرة الخارجية، وغياب الوسائل وضبابية المنطلقات، وطول أمد التخلف... متغافلة عن إمكانات الأمة المادية والبشرية والروحية والقيمية والمعنوية والتاريخية القادرة على خلق المعجزات في سلّم التقدم الإنساني والعمراني والحضاري.

لذلك فإن المنهج الذي يقدمه لنا النورسي في هذا المجال يدل على نظرة مستوعبة للحياة بتفاصيلها وجزئياتها، وهي نظرة إيجابية قادرة على تحويل المحن إلى منح، والإيجابيات إلى سلبيات، وقادرة على استقراء العناية الإلهية في خضم المحن ولحظات الشدة، والدفع إلى الإنتاج والعطاء بنشاط وهمّة، على أساس "أن الدنيا مزرعة للآخرة وسوق ومعمل لها، وتدفع إلى السعي الحثيث في الحياة الدنيا، ثم إنها تُكسب القوة المعنوية المنهارة في غياب الإيمان قوة، وتسوق اليائسين الساقطين في العطالة واللامبالاة إلى الشوق والهمة وتحثهم إلى السعي والعمل"[(١)].

ولابن القيم في هذا السياق قول واضح في بيان معادلة مهمّة للسالكين إذ يقول: "قد استقرّت حكمته سبحانه أن السعادة والنعيم والراحة لا يوصل إليها إلا على جسر المشقّة والتعب، ولا يدخل إليها إلا من باب المكاره والصبر وتحمّل المشاقّ. ولذلك حفّ الجنة بالمكاره والنار بالشهوات.. وهذا التعب والكدّ يستلزم آلاما وحصول مكاره ومشاق هي الطريق إلى تلك الكمالات"[(٢)]. ولا يعني هذا تساوي لحظات الخير والشر في الحياة، فالغالب الأعم هي أحوال الحسن والخير واليسر، والاستثناء للشر والباطل، يقول النورسي: "فالخير هو الأصل في العالم، أما الشرّ فهو تبعي، فالخير كلي والشر جزئي"[(٣)]. قد يبدو هذا الكلام

---

(١) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص:٢٩٤.

(٢) الجوزية، ابن القيم "**شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**" تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص: ٣٦٦-٣٦٧.

(٣) "**كليات رسائل النور؛ صيقل الإسلام**" لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص: ٤٨.

مستغربا شيئا ما إذا ما قارنّاه بحجم المعاناة التي مرّ بها بديع الزمان وطول سنين الملاحقات والمحاكمات والسجون، ولكن ينبغي أن ننتبه بعمق إلى كلام النورسي حين يفصح – في خضم تلك الظروف – عن لحظات من السعادة والانشراح والانبساط والدعم المعنوي والفيوضات الربانية التي يفتح بها الله عليه من خلال معاني إيمانية جديدة يدوّنها فتكون زادا له وأول من يستفيد منها. أو تفاؤله بما تقدّمته الرسائل من خدمات إيمانية جليلة، وما تضمنته من معاني قرآنية تسمو بأصحابها إلى مراتب علوية. والسعادة القلبية أمر داخلي لا يعكسها بالضرورة الأحوال المرئية الخارجية التي قد تكسوها المحن والبلايا، ففي تلك الحالات تحقيق للمعنى الشمولي للعبادة الذي يجعل من البلايا والضر والأمراض طريقا موصلا إلى الله مهما طال زمن النوائب، يقول النورسي: "فإذا ما تحمّل المصاب بالصبر وفكّر في ثواب ضرّه عند الله وجميل أجره عنده، وشكر ربّه عليها، تحولت عندئذ كل ساعة من ساعات عمره كأنها يوم من العبادة، فيغدو عمره القصير جدا مديدا طويلا"[1] بما يثمر من نتائج حياتية عظيمة.

ولا شك أن الأجيال التي جاءت بعد النورسي قد وقفت على تجليات الرحمة الإلهية والفضل الكبير الذي منحه الله لهذا العالم الرباني الذي "كان جل اهتمامه منصبا في تحطيم قيود اليأس وكسر أغلال القنوط التي كبّلت الناس، وكان يحاول جهده أن يشعل بصيص الأمل وبريق الرجاء في نفوسهم. فضلا عن وضعه لهم موازين شرعية ومنطقية لوزن الأحداث المستحدثة، بعقلية متوازنة إيمانية هادئة، بعيدة قدر الإمكان عن الانفعالات وردود الأفعال"[2]، وكثيرا ما نجده يوصي "بأن نجعل حياتنا وقفا للحق والحقيقة وليست لأنفسنا، ونسعى دوما لرؤية وجه الرحمة وأثرها وذاتها في كل شيء فنظل شاكرين لا شاكّين"[3]. ورسائل النور مليئة بهذه القواعد الإيجابية التي تبعث على الأمل وتمنح رؤية تركيبية قرآنية لتفاصيل الحياة، ومن هذه القواعد الآية القرآنية: ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ**

---

(١) "**كليات رسائل النور؛ اللمعات**" لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص: ١٣.

(٢) إحسان قاسم الصالحي من مقدمته للمناظرات ضمن "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص٣٥٢.

(٣) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص:٣٢٨.

لَكُمْ﴾، ومنها: «الخير فيما اختاره الله»، و«الحمد لله على كل حال سوى الكفر والضلال» و«البلاء النازل بنا عناية بحقنا»[1]، و«خير الأمور أحمزها (أقواها وأشدها)»[2]. والنظر إلى الأحسن من كل شيء.

ولا شك أن تجرّد النورسي لخدمة القرآن وإنقاذ الإيمان وإخلاص طلابه في خدمة رسائل النور، قد منح للرسائل بركات من تأثيرات القرآن وفيوضات الرحمن، حيث كانت قادرة على استيعاب النفوس المتجردة وإدخالهم في بساتينها اليانعة وفضاءاتها الماتعة، حتى وإن لم يكن منطلقها ناشدا للحق وراجيا أنوار الهداية وبراهين العرفان، فتحيي فيهم جذوة الإيمان وتتجاوز بهم آفاق الضيق والتحيز إلى رحاب الحق والعدل الإنصاف، وهذا ما حدث للعديد من المسؤولين ممّن صادروا الرسائل لمقاصد أمنية "فبدأوا بدراستها بكل اهتمام ولهفة، فتحولت تلك المحافل الرسمية إلى ما يشبه المدارس النورية، إذ انقلب النقد والجرح عندهم إلى نظرة الإعجاب والتقدير"[3] ويضيف النورسي مبرزا تأثير الرسائل: "وحولت تلك الدوائر الرسمية الواسعة إلى ما يشبه المدارس النورية، وأنقذت كثيرا من الحيارى والمترددين وشدّت من إيمانهم، مما ملأنا بهجة وسرورا هو أضعاف أضعاف ما كنا نعانيه من ضيق وضجر"[4]. بل إن الكثير منهم ازدادوا إيمانا وكانوا سببا في التخفيف من أزمات النورسي وطلابه ومحاكماتهم. مما يؤكد أن تأثير رسائل النور مستمد من تأثير القرآن نفسه، وهنا نتذكر موقف عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين قدم غاضبا إلى بيت أخته فاطمة وزوجها لتوبيخهما بسبب إيمانها برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فبدأت المواجهة بالضرب وانتهت بمحاورة كانت نتيجتها انقلاب جذري في اعتقاد عمر من الحالة الكفرية الشركية إلى الحالة الإيمانية الربانية بتوفيق من المولى تعالى، بعد سماعه آيات بيّنات من القرآن الكريم وتفاعله الفطري معها. لقد كان منهج الصحابة قرآنيا مرجعا ومنهجا وأساسا للتقويم والمراجعة، وهو نفس

---

(١) المرجع نفسه، ص:٣٧٨.

(٢) المرجع نفسه، ص:٣٨٤.

(٣) المرجع نفسه، ص:٣٥٥.

(٤) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص:٣٥٩.

المسار الذي اتخذته رسائل النور، وفي ذلك يقول النورسي: "إن مسلك رسائل النور مسلك مقتبس من نور مسلك الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين"[١].

٢- منهج الاستيعاب والتجاوز والنظرة الإيجابية إلى الفتن والأزمات

لقد كان النورسي ميّالا إلى السلم والأمن، وكان شديد الاحتراز "من الوقوع أو الإيقاع في أحوال تجر إلى منزلق المعصية والضلال والوبال، وإلى أجواء المحنة والخوف والاضطراب والحيرة، مما لم يأمر الله تعالى به ولا أذن فيه ولا رغّب في فعله"[٢]، فمن ميزات الفتن القاتلة أنها تعصف بالفئة المؤمنة وتغصب حقوقها وتقتلع جذورها. ولقد فتح الله للنورسي بصيرة الوعي بأن شروط التعارك والصراع المباشر والمواجهة المسلحة مع قوى الكفر والضلال غير متوفرة كما أنها غير مجدية في الغالب، خاصة وأن النظام الحاكم قد أعدّ كل قواته وأسلحته لإخماد الحركة الاحتجاجية، فكان الطريق الأسلم في ظل الظروف الراهنة آنذاك هو المواجهة السلمية التدافعية بسلاح الكلمة القوية وإنقاذ الإيمان لمواجهة الزندقة والظلم والإلحاد. وكثيرة هي المواقف التي حقن الله بها بالدماء وكان صارما في تجنب المواجهة المسلحة الداخلية رغم أنه كان الشجاع المغوار الذي أظهر بسالته في مواضعها الصحيحة في الحرب ضد الروس وغيرها.

بهذا المنهج استطاع النورسي أن يستوعب ظروف عصره الراهنة، وأن يتجنب أسباب الفتن وعوامل ظهورها، كما كان على وعي تام "بفتن تكرر فشلها وضررها"[٣] وكانت له دراية مواكبة لعزيمة الشعب وغيرته الدينية، فاستطاع أن يستوعب فئات عريضة من المجتمع ويمنعها من السقوط في الفتن والصراعات الصدامية المحسومة نتائجها مسبقا، والتي كانت ستعصف بأرواح الأبرياء من الجنود المتحمسين والعامة الغيورة على دينها وعقيدتها دون أن يتنازل عن حق الأمة في العزة والكرامة والحرية والعدل، ونبذ الاستبداد والظلم وفتنة الناس عن إيمانهم وعقيدتهم وعبادتهم لربهم، فكان همّه الأساس التحصين الفكري والخلقي لعموم الناس، خاصة وأن البيئة المناسبة لتحصيل الأثر التربوي والإيماني لرسالة النور هي أجواء

---

(١) المرجع نفسه، ص: ٤٠١.

(٢) الريسوني، أحمد "**فقه الثورة، مراجعات في الفقه السياسي الإسلامي**" مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط ١، ٢٠١٢م، ص: ٣٤

(٣) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص:٢٩٤

الأمن والنظام والهدوء، حتى وإن كانت ظروف تأليفها غير ذلك، لذلك يربأ النورسي بطلاب رسائل النور أن يشاركوا في الفتن، وبالفعل "لم يشترك فيها واحد منهم، إنما يدل (ذلك) على أن رسائل النور ضدها (أي الفتن) وأنها مدار تحقيق الأمن والنظام"[١]. وفي عبارات واضحة يوضح النورسي أن "خدمتنا تؤسس الأمن والاحترام والرحمة وتسعى لإنقاذ النظام والأمن والحياة الاجتماعية من الفوضى والإرهاب"[٢]. وفي ذلك نجده يوصي طلبة النور "ألا يواجهوا المغارضين بالحدة والتهور، ولا يقابلوهم بالمثل. بل عليهم أن يكتفوا بالدفاع عن أنفسهم فحسب، مع إظهار روح المصالحة، والإجابة بوضوح عن نقاط الاعتراض"[٣].

من جهة أخرى لم يكن النورسي يغتر أمام الشعارات البراقة التي كانت ترفع باسم الشريعة وتطبيق الدين[٤]، رغم ظاهرها الجميل وهدفها النبيل، وتوقيتها المناسب ظاهريا في تلك الفترة العصيبة التي تكالبت فيها قوى الضلال والاستبداد على العقيدة والإيمان وشعائر الإسلام، وإنما كان ينظر إلى مآلات الأمور ومقاصدها ومراميها واستقراء النتائج المحتملة من وراء قرارات متسرعة وغير محسوبة قد لا تصل إلى مبتغاها وقد تكون نتائجها عكسية على الكليات الأساسية التي جاء الإسلام للحفاظ عليها وهي: الدين والنفس والعرض والعقل والمال. فقد يزداد الخناق على الدين، وقد تسقط الآلاف من الأرواح البريئة وتنتهك الأعراض وتستلب الأموال. فضلا عن ازدياد التضييق والتهميش للفئة المتدينة.

ولا شك أن المتغيرات الإقليمية التي شهدها العالم في الفترات المعاصرة بحاجة ماسة إلى تنزيل تلك القواعد والضوابط التي أسس لها النورسي في مواجهة الفتن والأزمات، فكثيرة هي

---

(١) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص: ٢٩٤-٢٩٥

(٢) المرجع نفسه، ص: ٣٤٤

(٣) المرجع نفسه، ص:٣٤٨

(٤) مثال ذلك (أحداث ٣١ مارس ١٩٠٩) حين رفع الجنود شعار "نريد تطبيق الشريعة" فنبّههم النورسي إلى خطورة العصيان العسكري على شرف العثمانيين وعامة المسلمين... وقد نجح في تهدئة العصيان إلى حد ما وأرجعهم إلى صف الطاعة. (انظر السيرة الذاتية ص١٢٢-١٢٤). ومن جهوده في ذلك أيضا ما جرى في حادثة تبليس سنة ١٩١٣م و تهدئته لبعض المتدينين والغيورين الذين احتلوا المدينة لمدة أسبوع وأرادوا إعلان العصيان ضد بعض القواد (انظر السيرة الذاتية ص١٣٧). وغيرها من المواقف التي عبر من خلالها النورسي عن فقه عميق لمقاصد الشريعة ومراتب الأعمال وفقه المآلات والأولويات وقواعد الترجيحات.

الصراعات التي نشبت لتحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية ضيقة، فأُجّجت المعارك وجنّد الجنود لأسباب واهية، فكانت النتيجة تصدعات مجتمعية وتكالبات إقليمية وبروز طائفيات دينية وعرقية وإثنية غلّبت المصالح الذاتية على مصالح الجماعة والأمة. وإننا اليوم بحاجة ماسة إلى المبادئ النورسية في مواجهة الفتن والأزمات، وإيقاف نزيف دماء الأبرياء، وهدر الطاقات المادية والبشرية وتوجيهها الوجهة الصحيحة نحو البناء والعمران بدل الاحتراب والاقتتال.

٣- الاستيعاب والتجاوز في النظرة الإيجابية المنضبطة إلى الحضارة والمدنية الغربية والعلوم الحديثة

لقد كان بديع الزمان مستوعبا للعلوم الحديثة، وآخذا بنظر الاعتبار متطلبات العصر وحاجاته الملحة[١]"حيث استحصل على أسس هذه العلوم من تاريخ وجغرافيا ورياضيات وجيولوجيا وفيزياء وكيمياء وفلك وفلسفة وأمثالها من العلوم. وذلك خلال مدة قصيرة جدا. وسبر أغوار هذه العلوم بنفسه دون معونة أحد ودون اللجوء إلى مدرّس يدرّسها إياه"[٢].

هذا الاستيعاب المبكر للعلوم شكّل زادا علميا ورصيدا وظيفيا أعان النورسي في تدوين تأملاته القرآنية ونظراته التفسيرية الثاقبة، التي تآلف فيها النقل والعقل، وتكامل فيها الوحي المسطور مع الوحي المنظور، يؤكد ذلك قول النورسي: "لقد أصبح ما يقرب من تسعين كتابا حفظته مدارج للصعود إلى حقائق القرآن الكريم. ولما بلغت تلك الحقائق شاهدت أن كل آية كريمة تحيط بالكون وتستوعبه"[٣]. وقد حاول النورسي بهذا المنهج الرقي بالمدارس الدينية لتتجاوز تقليدية طرق تدريسها وتأخرها عن ركب المدنية، وتنظر بإيجابية إلى مكتسبات

---

(١) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص:: ٨٠

(٢) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص:٧٩. ولعل المقصود من ذلك تحصيل أصول هذه العلوم وأساسياتها الكبرى، دون ادعاء أنه كان متخصصا بارعا في جميعها، فمن قناعات النورسي أن "الشخص الواحد لا يستطيع أن يتخصص في علوم كثيرة؛ إلا من كان فذا، فيستطيع أن يتخصص في أربعة أو خمسة من العلوم، ويكون صاحب ملكة فيها. فمن ادعى الكل فاته الكل؛ لأن لكل علم صورة حقيقية، وبالتخصص تتمثل صورته الحقيقية (...) والعلاج هو اتخاذ المرء أحد العلوم أساسا وأصلا، وجعل سائر معلوماته حوضا تخزن فيه". (انظر: "**كليات رسائل النور؛ صيقل الإسلام**" لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص: ٣٩)

(٣) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص: ٨٢

الحضارة الإنسانية لتستوعبها وتبث في الروح بسقيها بالحقيقة الإيمانية القرآنية لتتجاوز إيحالاتها الوضعية وبراديكماتها المادية.

صحيح أن علوم الشرع مؤسسة على نصوص الوحي وأن باقي- العلوم النافعة، المادية منها والإنسانية، مؤسسة على النظر والاعتبار في الكون وعلى التجريب في المادة، وتحليل سلوكات الإنسان الفردية والجماعية. وكلاهما (الوحي والكون) صادران عن الخالق عز وجل، فالكون هو الحاضن للإنسان وفضاء الاستخلاف، والوحي هو الموجّه للإنسان والمسدّد له في البناء والعمران. فهذه الأصول التأسيسية تربطها روابط وتجمع بينها علائق لا تنفصل بحال من الأحوال. فما قيمة العلوم الشرعية إن لم تبن إنسانا متصلا بخالقه، معرفة وعبادة وتخلّقا، وتحفظ كرامته وتصون عزته، ليكون واعيا بدوره في الحياة، نافعا لنفسه ولغيره. وما قيمة باقي العلوم إن لم تحقق للإنسان وللإنسانية وللكون النفع المادي والمعنوي، وتساهم في الرقي الفكري والثقافي والحضاري في مختلف مجالات حياة الإنسان، وفي ذلك يقول النورسي: "ضياء القلب العلوم الدينية ونور العقل هو العلوم الكونية الحديثة، وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة وبافتراقهما تنشأ الحيل والشبهات في هذا والتعصب الذميم في ذاك".

لقد كانت تأملات النورسي متكاملة في الكتابين معا: الوحي المسطور والكون المنظور، فكلاهما يدلان على الخالق عز وجل، وهما كتابان مفتوحان أمام الإنسان في كل وقت وحين، وحتى إن حصل التضييق على الاتصال بالوحي المسطور فإن الوحي المنظور طريق مفتوح موصل إلى توحيد الخالق وعظمته وعزته، وتأكيدا لذلك يحكي النورسي: "جاءني فريق من طلاب الثانوية في «قسطموني» قائلين: عرّفنا بخالقنا، فإن مدرّسينا لا يذكرون الله لنا!. قلت لهم: إن كل علم من العلوم التي تقرؤونها يبحث عن الله دوما، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة. فأصغوا إلى تلك العلوم دون المدرسين"[1]، وفي موضع آخر يؤكد أن "كل علم من العلوم العديدة جدا، يدل على خالق الكون ذي الجلال، ويعرفّه لنا سبحانه بأسمائه الحسنى، ويعلّمه إيانا بصفاته الجليلة وكمالاته"[2].

---

(١) "**كليات رسائل النور؛ الشعاعات**" بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص: ٢٤٣.

(٢) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص: ٣٣٦

لقد عاش النورسي ظروفا استثنائية تميزت بسياسة ممنهجة لاتباع الغرب والسير على خطاه بداعي التقدم والتحضّر، ورغم الإجراءات القاسية التي رافقت هذا التوجه والقائمة على محاربة كل مظاهر الدين والتدين إلا أن ذلك لم يمنع سعيد النورسي من أن يبني تصورا منضبطا وإيجابيا حول المدنية الغربية وإفرازاتها الحضارية والثقافية وغيرها، تصور قائم من جهة على بيان مواطن الخلل والخطل لتجاوزها وتفاديها، وقائم من جهة أخرى على بيان الجوانب المضيئة لاستيعابها والاستفادة منها وتعزيزها وتخليصها من رواسب المادية الوضعية وسقيها بروح الإيمان، جاعلا قاعدة "خذ ما صفا دع ما كدر" دستورا لمنهج الاقتباس من الغرب، "وفي ضوئها (يقرر النورسي) أننا سنأخذ من الأجانب – مشكورين- كل ما يعين على الرقي المدني من علوم وصناعات. أما العادات والأخلاق السيئة، فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا يتبين قبحها كثيرا لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة"[1]، وبهذا المنهج "تتحقق المدنية التي تأمرنا بها الشريعة الغراء وتتضمنها، فهي التي ستنكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة، **وتضع أسسا إيجابية بنّاءة** مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية"[2].

لقد كانت للنورسي تأملات ثاقبة في المنطلقات التي ترتكز عليها المدنية الغربية، وكان متنبّها منذ وقت مبكر لسلبياتها، وعدّد مضارها ومنافعها، وهو يقرر أن الحضارة الإنسانية يوجد فيها الخير والشر والطيب والخبيث والطاهر والقذر، "وأن ما يرى في مدنية الكفار من المحاسن الإنسانية والمعالي الروحية، فمن ترشحات مدنية الإسلام، وانعكاسات إرشادات القرآن وصيحاته، ومن بقايا لمعات الأديان السماوية"[3]. كما وجد أنها مدنية قائمة على أسس سلبية أهمها: الصراع والجدال والتزاحم والتنازع، وتشجيع الهوى، والعنصرية والقومية السلبية، وكلها قيم سلبية مفرقة للجماعة ومؤججة للصراعات والحروب، ودافعة بالغالبية العظمى من البشر إلى الضنك والشقاء، "لأجل كل هذا لا يرضى القرآن الكريم بمدنية لا تضمن سعادة الجميع أو لا تعم الغالبية العظمى"[4]. وإنما يؤسس لمدنية مستوعبة للإنسانية "نقطة استنادها هي الحق بدلا من القوة.. وهدفها الفضيلة بدلا من المنفعة، والفضيلة من

---

(١) المرجع نفسه، ص: ١٠٣

(٢) المرجع نفسه، ص:٣٣٣.

(٣) "**كليات رسائل النور، المثنوي العربي النوري**" ص :١٨٧

(٤) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص: ١٥٩

شأنها المحبة والتجاذب. وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية الرابطة الدينية والوطنية والمهنية بدلا من العنصرية، وهذه شأنها الأخوة الخالصة، والسلام والوئام، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجانب. ودستورها في الحياة التعاون بدل الصراع والجدال، والتعاون من شأنه التساند والاتحاد. وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكما على الخدمات التي تقدم للبشر، وشأن الهدى رفع الإنسانية إلى مراقي الكمالات.. وتشوق الروح إلى المعالي"[(١)]، هذه المميزات القادرة على التجاوز جعلت النورسي يقرر في موضع آخر "أننا سنلحق بهم، **بل نسبقهم**، إن حالفَنا التوفيق الإلهي، لأن حملهم ثقيل وحملنا خفيف"[(٢)]. ولهذا السبق علامات ومؤشرات، ولعل أهمها –كما سبق– "وضع أسس إيجابية بناءة مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية"[(٣)] وتحقيق السعادة الحقيقية التي تؤلف بين الروح والمادة، ومصلحتي الدنيا والآخرة، مدنية تستوعب الكل أو الأكثرية[(٤)]، ولا شك أن هذا المنهج هو وحده الكفيل بإخراج أمة شاهدة على الأمم الأخرى تتسم بالشهود والخيرية والرحمة والإحسان، وتستوعب جميع المكونات البشرية العرقية والدينية واللغوية في إطار عالمية إنسانية يجد الجميع في رحابها خصوصيته وذاتيته.

٤– الاستيعاب والتجاوز في النظرة الإيجابية إلى مختلف فئات المجتمع

كان قدر النورسي أن يتعامل مع فئات مختلفة من المجتمع، تأثّرت بأخلاقه وشيمه الإسلامية الإيجابية الرفيعة، سواء في تعامله مع شيوخه وأساتذته أو مع تلامذته وطلابه، أو مع المسؤولين والسياسيين، والعسكريين والحراس، أو مع المخالفين له في الرأي والدين والعقيدة، أو مع الأعداء والمحاربين، أو مع الأطفال والنساء وعامة المجتمع، حيث "كان في غاية التواضع؛ يتجنب بشدة دواعي التفوق على الآخرين والتميز عنهم. وكان يعامل جميع

---

(١) المرجع نفسه، ص: ١٦٠

(٢) "**كليات رسائل النور؛ صيقل الإسلام**" بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مرجع سابق، ص: ٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٣٣٣.

(٤) المرجع نفسه، ص: ٣٣٢.

الناس بالحسنى ولا سيما الشيوخ والأطفال والفقراء ويشملهم بالرفق والمحبة الأخوية واللين في المعاملة. فكانت المحبة والبشاشة الممتزجة بنور الوقار تتلمع من وجهه الطليق دائما"[1].

وإذا كان الاستيعاب الداخلي شرط أساس للتجاوز، فقد حسم النورسي منذ وقت مبكر أمر استيعاب طلابه وتقويتهم وإدماجهم في مشروع قرآني كبير يحتاج إلى تلاؤم الجهود وتظافر الطاقات. لذلك كان حريصا على سلامة الصف الداخلي لطلابه وتقوية أخوتهم وتماسكهم، فكثيرا ما كان يحذرهم من الانتقاد الهدام، والتفرق والتشتت، والتحاسد والتباغض، وينبههم إلى طبيعة الفروقات الفردية بينهم وأن لكل منهم ميزاته الخاصة، وأن ذلك من سنن الاختلاف في الحياة ومظاهر الكون، وينصحهم بالتضحية والشورى وترك الأنانية والانتصار للنفس وحب الظهور. وكلها منطلقات كانت تهدف إلى المحافظة على سلامة المشروع الإيماني وضمان استمراريته وإشعاعه، لأن في تماسكهم وأخوتهم قوة لرسائل النور ودعم لنشرها وانتشارها "وبخلاف هذا فإن اختلافا طفيفا... يمكن أن يلحق أضرارا بليغة برسائل النور"[2].

ولعل أهم حوافز ذلك التماسك ما كان يبديه النورسي لطلابه من اهتمام بالغ وتقدير كبير لشخصهم وأعمالهم، فضلا عن خدمتهم وإعانتهم والسؤال عن أحوالهم، وتشجيعهم والإفصاح لهم عن حاجة رسائل النور إليهم. لقد كان النورسي قمّة في التواضع مع طلابه، لم ير في نفسه إلا عنصرا ضمن فريق متكامل يحتاج إلى جميع عناصره لإكمال مهمته وهدفه، وبالفعل استطاع الفريق أن يكمل الخدمة الإيمانية وتنتشر خيراتها وبركاتها، لتستوعب حتى إخوانه ممن أتوا بعده فأصبحوا تلامذته وطلابه دون أن يراهم أو يروه، فتجاوز بذلك زمانه إلى أزمنة أخرى لم يعشها، ووصل تأثيره إلى أمكنة لم يرها، وشعوبا لم يدرس لغاتها وعاداتها، ولعل ذلك التجاوز جزء معنوي من فيوضات القرآن وبركاته.

قد يرجع السبب في ذلك إلى انشغاله الكبير بالمشترك العظيم الذي يهم جميع الناس، وهو إنقاذ الإيمان وخدمة القرآن، وإبراز تجليات ذلك في مختلف أحوال الحياة ومراحلها لدى الإنسان، فكانت الأمثلة الغزيرة والجزئيات الكثيرة التي ضمتها رسائل النور سببا في أن

---

(١) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، من مقدمة الكتاب لمصطفى صونغور ص:١٥-١٦.
(٢) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص: ٣٥٠.

تستوعب معنويا وروحيا فئات مجتمعية عريضة من الأغنياء والفقراء، والأصحاء والمرضى، وأهل المصائب والمعافين، والنساء والرجال، والمهتدين والغافلين... فتسقي كل فئة بما هي في حاجة إليه من الإرشاد والتوجيه والتنبيه والتذكير. وقد مرّ سابقا كيف استطاعت الرسائل أن تؤثر في المسؤولين المتربصين، بل و"تؤثر في المسجونين وتحوّلهم إلى أناس صالحين مصلحين"[1].

وحتى إذا نظرنا إلى حالات خاصة بعينها، نجد تجليات المنهج البنائي القرآني واضحة في تعامل النورسي مع غيره من المخالفين له في العقيدة والدين، أو المعارضين له في الرأي والاجتهاد، أو الجاهلين عليه من العامة والصبيان، فقد سامح الكثير ممن اعتدى عليه من المسؤولين الذين أذاقوه مرارة المعاناة والضيق والتسميم، ومن الصبيان الذين رموه بالحجارة، ولكنه تحمل وتجمل بالصبر، ولم يحمل في صدره غير السلامة وفي قلبه غير الطهر"[2] وكان يدعو للجميع بالخير والهداية حتى استطاع في آخر الأمر أن يكسب ود الجميع واحترامهم.

خاتمة

لا شك أن الإبحار في عالم القرآن بالصدق والإخلاص ينتج عملا متّسما بقبسات من نور القرآن، وإذا كان من المعاني المستخلصة من الاستيعاب والتجاوز كمحدد منهجي قرآني قدرة كل جيل على خلق التواؤم المطلوب بين عناصر منظومة الاستخلاف الثلاثة: الوحي والعقل والواقع، فإننا يمكننا التقرير بقناعة تامة أن بديع الزمان سعيد النورسي استطاع أن يوائم بنجاح بين الوحي ومتطلبات واقعه وأن يوظف ما حباه الله من نعم في القيام بفريضة ذلك الوقت للمحافظة على بواعث الإيمان.

ولقد حاولنا أن نبرز بعضا من تجليات الاستيعاب والتجاوز في المشروع العلمي لسعيد النورسي فوجدنا أن لها معالم واضحة في المنطلقات والأسس النظرية وكذلك في الممارسات العملية والنماذج التطبيقية التي زيّنت حياته الثرية وكانت نموذجا فريدا في العمل الإيجابي البنائي والعمل الميداني والتدافع المجتمعي والحضاري المستوعب للقيم الإنسانية والأصول

(١) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، ص: ٣٦٠.

(٢) "**كليات رسائل النور، سيرة ذاتية**"، من مقدمة الكتاب لمصطفى صونغور، ص: ١٧.

الإسلامية الكلية التي تضمن العزة والكرامة والحرية والعدل والحقوق وأداء الواجبات، فكانت تجربة غنية وفرت للعلماء والباحثين مادة علمية ثرية يستقون منها مناهج في النظر وقواعد في السلوك قابلة للتوظيف في مقاربة الكثير من القضايا المعرفية والثقافية والتربوية والاجتماعية والإنسانية في واقعنا المعاصر.

لائحة المراجع والمصادر:

- القرآن الكريم؛
- "كليات رسائل النور، سيرة ذاتية"بديع الزمان النورسي، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- "كليات رسائل النور، الكلمات"، بديع الزمان النورسي، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م
- "كليات رسائل النور؛ الشعاعات" بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- "كليات رسائل النور؛ صيقل الإسلام" بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- "كليات رسائل النور؛ اللمعات" بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.
- "كليات رسائل النور، المثنوي العربي النوري" بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.
- الريسوني، أحمد "فقه الثورة، مراجعات في الفقه السياسي الإسلامي" مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط ١، ٢٠١٢م.
- بلعقروز، عبد الرزاق "عودة المكبوت الديني في الثقافات المعاصرة" مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة الرابعة عشرة، العدد ٤٣-٤٤ صيف وخريف ٢٠١٠-١٤٣١.
- الجوزية، ابن القيم "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل" تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.